

محاضرة

المادة التطبيقات اللغوية

المرحلة الرابعة

عنوان المحاضرة: المعنى والوظيفة النحوية ، وموضوع المجاورة.

أ م د. صلاح كاظم هادي

كلية التربية للبنات / بغداد

قسم اللغة العربية

يحتاج النص الأدبي القديم إلى طول مدارسة وتأمل ، لبعده الفاصلة الزمنية التي تدخر الكثير من الفروق الثقافية التي تؤثر في توجيه المعنى ، وإن فهم النظم التعبيرية لشاعر ما ، في عصر ما ، يقتضي استكشافا تاريخيا للهيكل الثقافي ، والوقوف بالدرجة الأولى على أسرار الإبداع في تقديم المعنى بالتحكم بأشكال التراكيب اللغوية ، وهو ذاته ((محور الاختيار الذي يحوّل من أجزاء اللغة إلى أسلوب في الكلام)) (١) . وقد اخترنا موضعين في معلة امرئ القيس ، ليكونان مثالين لفكرة العلامة المفسرة ، وتطبيقين يتعلقان بطريقة الوصول إلى أحادية المعنى في أي نص ، ولا نرى أن هناك تسامحا دلالياً يؤدي إلى تشظي المعنى وتعدده ، فالمعنى دائما واحد ' وإن تعدد وجوه التأويل ليست إلا سماعات تتعلق بما وراء النص ، بل تتعلق بالمتلقي ، والنص برئ منها . فالمبدعون منتجون والمتلقون المتذوقون من القراء هم المستهلكون ، وهؤلاء ينقسمون قسمين ، فالقارئ المستهلك الذي يوجه النص بحسب ذوقه وثقافته وإرادته يشوه البضاعة ومن دون أن يوجه حكماً استدالياً على هذا الذوق، في حين أن القسم الثاني من القراء المطلعين من الفئة المثقفة العارفة بأسرار التعبير ، فهي التي لها مزية الحكم الأدبي (٢) .

إن اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار والعلامة اللغوية عند سوسور هي كيان ثنائي المبنى مكون من الدال والمدلول ، فالدال هو الصورة الحسية الصوتية والمدلول هو المفهوم أو فمرة الصور الصوتية الحسية ، والعلامة اللغوية ذات طبيعة اعتباطية (٣) ، ولكننا نجد أن صفة الاعتباط تضعف عندما تدخل العلامة إلى حيز الكلام ، وقد أعاد سوسور الربط بين اللسان والكلام ، ومايز بين محور الاستبدال ومحور التراكيب (٤) ، فالأول يكمن في العلاقات التي توجد بين العلامات داخل اللغة - اللسان - أي في الذهن الجمعي لتلك الأمة ، ويقوم الكلام باختيار بعضها في التواصل دون الآخر، أما الثاني

فيكمن في التسلسل الذي تخضع له العلامات في الكلام على وفق نظام خطي (٥) ، ونحن نرى أن في المحور الثاني تخضع العلامة للنظام المنطقي بنظام مشابه للتصور العام لعالمنا ، وهنا تفقد العلامات صفة الاعتباط نسبياً . ولذلك يمكن أن يدخل عنصر العقل للتكوين الدلالي ، وبمقتضيات منطقية تحدد بالتصور ، أو التصديق ، أو الحجة ، وهذا ما ذهب إليه شارلس ساندرس بيرس في تقسيماته الثلاثية للعلامة ، فالعلامة الرئيسية الثالثة عنده ، هي التي تفسر لنا الموضوع ، ولها تعريف ثلاثي ، و يطلق عليها بثلاثية الفكر ، التي تتكون من ثلاث عناصر أو علامات حيث يعد كل عنصر علامة تعود إلى العلاقة الرئيسية وهو المؤول أو المفسر الذي ينتمي إلى التصنيف الرئيسي الثلاثي الذي ذكرناه سابقاً: لكي نحدد هذا التعريف الثلاثي فنطلق عليه الثلاثية الثالثة على أساس أن المؤول يحمل رقم ثلاثة ضمن التصنيف الثلاثي للعلامة ، كما يأتي :

(أ) العلامة التصويرية: (التمثيل المباشر) هذه العلامة تعد الأولى ضمن التفريع الثلاثي للعلامة الثالثة (المؤول) ويطلق عليها بيرس أيضاً علامة السمة وتسمى أيضاً علامة خبرية تمثل موضوعاً ممكناً. وبعبارة أخرى إن الخبر علامة تشكل في علاقتها بموضوعها علامة أننا ندركها بوصفها تمثل هذا الشيء الممكن وبإمكان الخبر أن يوفر معلومات لكنه لا يؤول بوصفه مانحاً لتلك الأخبار أو المعلومات فهي تفيدنا بخبر على الرغم من أنها قد لا يكون لها شرح أو تفسير. وترتبط علاقة التصوير عند بيرس بمعنى العلامة في منطقة للعلاقات ، الذي يدخل في عدها صورة للعلامة بكل عموميتها ولكل أنواعها الممكنة.

(ب) علامة التصديق : (التمثيل الفعلي) ويمكن أن يطلق عليها (الوجود الحقيقي) وذلك بالنسبة لمؤولها ، أي أنها تميز موضوعاً حقيقياً واقعياً ، فالتصديق " هو علامة تشكل في علاقتها بمؤولها علامة لوجود فعلي ، إذ تتضمن بالضرورة وكجزء من نفسها خبراً كي تكون قابلة للتأويل لكونها تشير إلى شيء ما " وعلى هذا فإن العلامة (التصديقية) في حاجة لكي توجد الممثل داخل وضعية حقيقية تستدعي علاقة بين عنصرين ، فلا يمكن للمعنى إن يبقى في حدود ما يفرزه الممثل من معلومات أولية كناصر لإخبار كاف .

ج - علامة الحجة : وتسمى هذه العلامة أيضاً بالبرهان " فالحجة هي علامة تشكل في علاقتها بمؤولها علامة قانون ، وتدرك بوصفها تمثيلاً لموضوع عن طريق طابعه كعلامة ، وهي كذلك (أي علامة الحجة) فعل ذهني يحاول الإنسان أن يقتنع بصحة قضية ما (٦) .

وبصدد قراءتنا لقصيدة امرئ القيس نقف أولاً على مشهد الوقوف على الطلل ، فنحتاج إلى الأنواع الثلاثة المنقسمة من العلامة المفسرة ، لأن النص ينقل إلينا خبراً عن الوقوف ، وإن المشهد حسيٌّ ، يستدعي صورة تتضمن الزمان والمكان والهيئة ، فتعود بنا المخيلة إلى ثوابت خبرها الحس لتمنح المعنى بعداً مصداقياً ، لكننا نواجه عموضاً في النص ؛

ففتحج إلى الاستعانة بتفسير ينحو منحاً لغوياً ، ويعتمد معاني النحو اعتماداً جوهرياً للوصول إلى المعنى المقصود ، وهو معنى صائب واحد . بقول امرؤ القيس : (٧)

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمال
ترى بعر الأرام في عرصاتها	وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحمّلوا	لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبي علي مطيهم	يقولون لا تهلك أسي وتجمّل
وإن شفائي عبرة مهراقة	فهل عند رسم دارس من معول

ويتضمن النص نقلاً خبرياً واضحاً يفيد في استيقاف الشاعر امرؤ القيس أصحابه ، محدداً وصفاً جغرافياً للمكان (سقط اللوى ، والدخول ، وحومل) وتضمن أيضاً تحديداً ومكانياً ، أعانته عليه اللغة ، فقد كان فاصل المسافة بين (سقط اللوى) و(الدخول) بسيطاً ، فأشار إليه بالعطف بين المكانين بحرف العطف (الواو) ، إلا أنه استعمل الفاء ، لوجود استرخاء زمني لطول المسافة بين (الدخول) و (حومل) ، وكذلك الأمر في المدة الومنية بين (توضح) و(المقراة) . وإذا كان المكان والزمان يحددان الوصف وبعض الهيئات فإنهما يحملان شحنة التخيل بالقوة ، إن لم تتوافر بالفعل ، وإن ((إحساساتنا المنتمية إلى الإدراك الباطني أي من زاوية داخلية ... في لحظة معطاة ، أو إدراكاتنا ذوات العلاقة بالإدراك الخارجي أي بالعالم الخارجي المحيط بنا بصرف النظر عن مصفها سمعياً كان أم بصرياً أم لمسياً أم ذوقياً أم شمياً ، التي هي بالبداية تأويلات نعطيها لما يحدث لنا مادياً أو نفسياً ... وفي هذه النقطة أيضاً تفتتح بداهة طريق الاتصال البيئذاتي والاجتماعي ، التي توظف هي أيضاً أعمالاً من مصف / الفعل / وعواطف أو حالات النفس المتعلقة بـ - الكينونة -)) (٨) . ولذلك يمكن نحصل على صفة المطابقة بين ما تقدمه كلمات امرؤ القيس وخبرتنا بامكان والزمان ، فيرتسم المشهد في الذهن بنقلة تجتمع فيها إمكانات النص مع الخبرات الحسية المترامكة .

ونصل إلى منعطف يؤدي إلى تشتت المعنى بحسب توجيه المتلقي للنص الشعري ، وهو كلمة (وقوفاً) ، وهذه الكلمة تؤذن بنهاية مشهد الوقوف ، ويكون تفسيرها حاسماً للمعنى ، فيقول الزوزني : ((نصب وقوفاً على الحال يريد قفا نبك في حال وقوف أصحابي مطيهم علي)) (٩) ، وقال أيضاً ((الوقوف جمع واقف بمنزلة الشهود والركوع والسجود ، في

جمع شاهد وراكم وساجد)) (١٠) ثم انتهى من ذلك ، إلى قوله ((وتلخيص المعنى أنهم أوقفوا رواحلهم يأمرونه بالصبر وينهونه عن الجزع)) (١١) .

ويشير صاعد البغدادي إلى أن هذا هو مذهب غير العارفين من الرواة ، ويقصد بالرواة النقاد وشرّاح الشعر ، قال : ((يقول من لا يعرف من الرواة : وَقَفُوا وَقُفُوا عَلَيَّ مَطِيئِهِمْ ، وهذا ضعيفٌ جدًّا ؛ لأنه لم يذكر فعلاً يُنصب هذا عليه . ولا يخرُج من باب : (قيامًا وقد قعد النَّاسُ) ، ولا من باب : (تميميًا مرّةً ، وقيسيًا أخرى) ؛ لأنّ ذلك إنّما يحصل عند الرؤية و المشاهدة ، وهذا يُخبر عن شيء كان . وقد قال قومٌ من الرواة : هو منصوبٌ على (قفا) وَجَمَعَ الاثنيْنِ ، وهذا خطأ ؛ لأنه في قوله : (قفا) يأمر ، وهو هنا يخبر)) (١٢) . وقال بعد ذلك أيضاً ساندأ الرأي لعيسى بن عمر : ((وقال لي عيسى بن عمر : في نصبه وجهان يغمضان في العربية بعض الغموض ... أمّا قوله : (وقوفًا) فمنصوبٌ على الحال من قوله : (يقولون) فيصير كقولك : (وقوفًا صحبي ينتظرون زيدًا) ... ويجوز على قولك : (لما نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ ، وقوفًا بها صحبي) ؛ لأنّ (وقوفًا) في موضع (واقف) ، فكأنّك قلت : (لما نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ ، في حالٍ وَقُوفٍ أَصْحَابِي) ، أي : صادفوها كذا ، كما تقول : (مررتُ بالدار قيامًا فيها زيدٌ) أي قائمًا فيها ... فالوجه : (قفا نَبِكُ وَقُوفٍ صحبي بها يقولون) ، فيكون (يقولون) حالاً ...)) (١٣) .

للنحاة وأهل اللغة في كلمة (وقوفًا) ، قولان ، وعليهما تنبني الوجوه الإعرابية:

- القول الأول :

أنّها مصدر اللّازم (فَعَلَ) على وزن (فعول) ، ك وقف وقوفًا ، وسجد سجودًا ، وقعدَ قعودًا .

- والقول الثاني :

أنّ (وقوفًا) جمع واقف ، اسم فاعل مثل : ساجد وقوم سجود ، وقاعد ، وقوم قعود ، ذكر هذين القولين صاعد البغدادي (١٤) ، والزّمخشري (١٥) ، وابن منظور ، (١٦) وأبوحيّان الأندلسي (١٧) .

ويمكن أن نجزم بالرأي أن القول الأول يبتعد عن المعنى في تأويل العلاقة النحوية ، فإن كان (وقوفًا) مصدرًا منصوبًا بفعلٍ محذوف ، والتقدير : (وقفوا وقوفًا) ، وقد ضعف صاعد هذا الوجه ، ونسبه إلى من لا يعرف من الرواة (١٨) ، والعلة الدلالية ليست هي التي قصدتها صاعد البغدادي ، بل إن من المنطقي أن لا يتكرر الفعل في المشهد ، فمن الواضح أن البعد التداولي التأثيري لفعل الأمر نافذ ومتجسد في المشهد ، وإن فرضنا وجود الفعل لاقتضى أن يكون الفعل سريعاً (وقفوا وقوفاً) و لا يوجد فاصل زمني بين الفعل والمصدر بل كلاهما واحد ، الأول فيه زمن والثاني فيه الوصف ، والمرجح أن يكون (وقوفًا) منصوباً على الحال - متقدم - على الفعل يقولون ، لأنه يمنح المشهد ثراءً ومنتسحاً

زمنياً ، فالشاعر مضى ليله كاملاً يبكي ، وأصحابه يقولون وقوفاً معه ، لاتهلك أسىً وتجمّل .

كأنّ ثبيراً في عرانيين وبله كبيرُ أناس في بجادٍ مزملٍ

إن هذه الحركة ليست حركة بناء أو إعراب وإنما هي حركة اجتلبت للمناسبة بين اللفظين المتجاورين ، فلا تحتاج لعامل للإتيان بها ، وإذا أردنا التسليم بمقولة أن الجملة - والنص بشكل عام - تأتلف أجزاءه من مكونات لفظية تحكمها علاقات ، فيمكن تسويغ التأثير بالعلاقة المكانية بحسب الوظيفة النحوية (الأولى) للمفردة بحسب المعنى ، ففي حالة النعت للمضاف والمضاف إليه يكون النعت معنوياً للمضاف ولفظياً للمضاف إليه ، فقد ((يوصف المضاف إليه لفظاً والنعت للمضاف ، ويقال له الجر بالجوار ، وذلك للاتصال الحاصل بين المضاف والمضاف إليه ، فجعل ما هو نعت الأول معنى نعت الثاني لفظاً)) الكافية لابن الحاجب ، بشرح الرضي ٣١٨/١ . كقولهم: (هذا جَرُّ ضَبِّ خَرِبٍ) ، ف (خَرِبٍ) صفة لـ (جَرُّ) ، وحقه الرفع ، لكنه أخذ حركة الجر لمجاورته المضاف إليه ، ولذلك توهم ابن الحاجب الوظيفة النحوية الثانية لـ (خَرِبٍ) ، فقال أنه نعت لفظي للثاني ، ويقصد تبعيته للثاني وهو (ضَبِّ) بسبب علاقة المجاورة . قال ابن مالك :

فالنعت تابع متم ما سبق بوسمه أو وسم ما به اعتلق

هذا	جرُّ	ضَبِّ	خرِبِ
مبتدأ مرفوع	١	٢	
خبر مرفوع مضاف	مضاف إليه	مجرور	نعت مرفوع بضمّة مقدرة ، مجرور محلا
	مؤثر معنوي	متأثر معنوياً	متأثر معنوياً
		مؤثر مكاني	متأثر مكانياً
	المتضايفان متماسكان كالشيء الواحد		

ويعد سيبويه ذلك القول ليس من فصيح العربية ، وإن الفصيح رفع (خرب) ، ولكنه يجد مسوغاً لجر (خرب) كونه نكرة ، ولأنه في موضع يقع فيه نعت (ضب) ، فجروه لأنه نكرة كالضب . (ينظر الكتاب ٤٣٦/١). ويتحكم تقسيم الأسماء النوعي (المعارف ، والنكرات) ، بالهوية الإعرابية ، فإذا كان الموصوف معرفة فينبغي له أن تكون صفته معرفة ، وإن الارتباط بينهما يختل ويضعف عندما تكون الصفة نكرة ، فالأولى أن تأخذ هذه الصفة حركة إعراب مانح المعرفة سمة التعريف ، وكذلك ينبغي أن تتأثر بالقرب المكاني من النكرة التي ماتلتها بالنوع ، ويبقى أن تماثلها بحركة رويها ، وهي تنوين الجر ، وهي كذلك جزء من هويتها ، وقد ذكر سيبويه اشتراط الخليل الفراهيدي في جواز جر النعت بالمجاورة ، وهو توافق المضاف والمضاف إليه أفراداً وتثنية وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً. (ينظر الكتاب ٤٣٧/١) ، وتعريفاً وتكثيراً . وتابع سيبويه في ذلك ابن مالك في شرح الكافية ، وابن أجيروم الصنهاجي في مقدمته وابن هشام في المغني :

هذا	جر	ضب	خرب
	١	٢	
معرفة	معرفة	نكرة	نكرة
	١	٢	
	متأثر نوعاً	مؤثر نوعي	مؤثر نوعي
	معرف بالإضافة	مضاف إليه	وفي وضع نعت المؤثر النوعي

(١) الإنسان ولغته، من الأصوات إلى اللغة (الكلام) / مارسيل لوكان / ترجمة د. ماري شهرستان / دار صفحات للدراسة والنشر / ط١ / دمشق سوريا / ٢٠٠٧ / ١٠١ .

(٢) ينظر: السوسولوجيا والأدب / د. قصي الحسين / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / ط١/ بيروت لبنان / ١٩٩٣ / ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) ينظر: علم اللغة العام / فردينان ديوسور / ترجمة يوثيل يوسف عزيز / دار آفاق عربية للصحافة والنشر / بغداد العراق / ١٩٨٥ / ٣٤ .

(٤) ينظر المصدر نفسه / ٦٨/

(٥) السيمياء العامة وسمياء الأدب من أجل تصور شامل / عبد الواحد المرابط / الدار العربية للعلوم ناشرون / بيروت لبنان / دار الأمان / الرباط المغرب / ط١/ ٢٠١٠ / ٤٢ .

(٦) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة / مرسيو دسكال / ترجمة مبارك حنون دار فريقيا الشرق /المغرب / ٥ .

(٧) شرح ديوان امرئ القيس ويلييه أخبار المراقسة وأشعارهم وأخبار النوابع وأثارهم في الجاهلية و صدر الشرح ديوان امرئ القيس ويلييه أخبار المراقسة وأشعارهم وأخبار النوابع وأثارهم في الجاهلية و صدر الإسلام / حسن السندوبي ، أسامة صلاح الدين منيمنة / دار إحياء العلوم / بيروت / لبنان / ١٩٩٠ / ٩ .

(٨) ينظر معرفة الآخر ، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة / عواد علي / المركز الثقافي العربي / ط١/ ١٩٩٠ / ٧٣

(٩) شرح القصائد السبع / الزوزني / ٩/

(١٠) المصدر نفسه / ٩/

(١١) المصدر نفسه / ١٠/

(١٢) كتاب الفصوص / أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي / تحقيق : عبد الوهاب التازي سعود / وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / المغرب / ط١/ ١٩٩٣ / ٢/ ٢١٠/

(١٣) نفسه / ٢/ ٢١٠/ ٢١١/

(١٤) ينظر: الفصوص / ٢/ ٢١٠-٢١١ .

(١٥) يُنظر: تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح / أبو جعفر الفهري اللبلي (ت ٦٩١ هـ) / تحقيق : أ. مصطفى عبد الحفيظ سالم / دراسة : أ. د. عبد الكريم علي عثمان عوفي / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / ط١/ ٢٠١١ / ٨٥/١ .

(١٦) يُنظر: إرتشاف الضرب من لسان العرب / ابن حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) / تحقيق : رجب عثمان محمد ، رمضان عبد التّواب / مكتبة الحانجي / القاهرة / مصر / ط١/ ١٩٩٨ / ٠، مادة (وقف) ، ٢٢٥٥/٥ .

(١٧) يُنظر: تفسير البحر المحيط / ابن حيّان الأندلسي / تحقيق : صدقي محمد جميل / دار الفكر / بيروت / لبنان / ٢٠٠٠ / ٣٩١/٤ .

(١٨) يُنظر الفصوص / ٢ / ٢١٠